١- الطريقة النقشبندية.

٢- الطريقة القادرية.

٣- الطريقة الرفاعية.

٤- الطريقة الشاذلية.

الطرق الصوفية

- إن الدارس والمحقق في الطرق الصوفية يجد أن منشأ هذه الطرق كان على أيدي أئمة من كبار العلماء اشتهروا في زمانهم، وعرفوا بعلمهم الغزير، وإيمانهم العميق، وبرزوا بالشريعة والحقيقة والطريقة، وقد أخذ كلٌّ منهم طريقته وتربّى على يد عالمٍ سلك هذا الطريق، وهذا أخذ وتربّى على يد عالمٍ سلك هذا الطريق، وهكذا، إلى أن تصل هذه السلسلة إلى عهد التابعين ثم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، كما سنرى ذلك من خلال دراستنا لأهم هذه الطرق، وهي:

١- **الطريقة النقشبندية.**

٢- **الطريقة القادرية.**

٣- **الطريقة الرفاعية.**

٤- **الطريقة الشاذلية.**

- والمقصود بالطرق الصوفية ليس فقط طريقة الذكر وما يتعلق به من هيئات وكيفيات وأوراد وأذكار متعددة، وإنما المقصود من الطرق الصوفية الطرق التي مؤداها علم بالشريعة، وتنور بالحقيقة، وسلوك تام مطابق لهما، ويتحقق ذلك من خلال ما يقوم به شيخ الطريقة من تربية لمريديه بأساليب متعددة فحين يحصل اللقاء الجامع بين الشيخ ومريديه يقوم الشيخ في هذا اللقاء بتفسير آية أو شرح حديث، ثم يتم التعليق على الآية أو الحديث بما أفاض الله على هذا الشيخ المربي من مواعظ وقصص وعبر وحكم وأمثال، مما يؤثر ذلك في سلوك المريدين وتغيير أحوالهم بما يتناسب مع الشريعة والحقيقة والسلوك، ثم بعد هذا الدرس النظري يكون هناك درس عملي جماعي يمارس فيه ذكر الله ﷻ.

- يبتدئ هذا الدرس بقراءة عشر من القرآن الكريم، ثم التوجه إلى الله ﷻ بالاستغفار، ثم قراءة سورة الفاتحة وسورة الإخلاص وسورتي المعوذتين وسورة الانشراح، ثم الصلاة على النبي ﷺ بصيغ متعددة وبعدد محدود ثم الابتداء بذكر الله ﷻ إما باسمه الأعظم (الله) أو بصفاته (لا إله إلا الله) أو بتسبيحه أو تحميده أو تكبيره أو بأذكار أخرى مستمدة من القرآن والسنة.

- ويختم المجلس بقراءة عشر من القرآن والصلاة على النبي العدنان ﷺ والدعاء.

- كل ذلك في جو إيماني يغسل النفوس، ويزيل الهموم، وينور القلوب، ويشرح الصدور، ويزيد في الإيمان.

- وأئمة هذه الطرق ظهروا ما بين القرنين السادس والثامن، فكانوا قريبي عهد بالسلف الصالح، حرصوا أشد الحرص على الاستفادة منهم والتمسك بما تمسكوا به من تعاليم القرآن والسنة، مبتعدين عن كل بدعة تُبعِدُ عن الدين وكل ضلالة تؤدي إلى النار.

- ثم انتشرت هذه الطرق في بلاد العالم، وتعددت أسماؤها حسب أسماء شيوخها، وإن وجد في بعضها شيء من البدع التي تخالف الشرع، فإنما هي بدعٌ ظهرت من المريدين الذين لم يتمسكوا بحقائق الطريقة، فالخطأ منهم لا من الطريقة.

- ومن أخذ بطرقهم فعليه أن يتمسك بحقيقة هذه الطريقة وجوهرها، وأن يبتعد عن كل بدعة يراها مخالفة للقرآن والسنة، وأن يعرف أن هذه البدع من زيادة بعض المريدين لا من أصل هذه الطريقة.

◻ الطريقة النقشبندية:

- تنسب هذه الطريقة إلى الخليفة الراشدي الأول سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ إذ كان يعدُّه - أصحاب هذه الطريقة - المؤسس الأول، وهم بذلك يرجعونها إلى الرسول ﷺ.

- وقد استقت هذه الطريقة مبادئها وأسسها التي ميزتها عن بقية الطرق الصوفية بفضل تعاليم أربع شخصيات:

أولاً- الصحابي الجليل سلمان الفارسي: (ت٣٦هـ/٦٥٦م).

ثانياً - أبو يزيد طيفور البسطامي واسمه طيفور بن عيسى بن آدم بن سروشان: ولد في خرسان (ت٢٤٦هـ/٨٧٧م) ولم يعرف مكان دفنه.

ثالثاً - عبد الخالق الغجدواني: (ت. ٥٧٥هـ/١١٧٩م) ولد بقرية غجدوان القريبة من بخارى ونشأ بها وتوفي ودفن بها أيضاً، وهو الذي وضع (الختم) النقشبندي أي طريقة الذكر، ومن المعلوم أن النقشبندية يولون أهمية كبرى لهذا الختم.

رابعاً- محمد بهاء الدين النقشبندي الأويسي البخاري المعروف بشاه نقشبند: وهو شيخ هذه الطريقة بلا منازع والتي أخذت اسمها من اسمه فأصبحت تعرف بالنقشبندية: ولد (٧١٧هـ/١٣١٧م) بقصر العارفان وهو قرية بالقرب من بخارى أصبح الشيخ محمد بابا السماسي والشيخ الأمير كلال، وقد اقتصر الذكر على الذكر الخفي وهذا النوع من الذكر أهم ما يميز الطريقة النقشبندية عن سواها من الطرق الصوفية توفي ليلة الاثنين ثالث شهر ربيع الأول (٧٩١هـ/١٣٨٨م) ودفن في بستانه كما أوصى.

- ومن آثاره عدة رسائل:

١- الأوراد البهائية وقد قام أتباع الشيخ بشرحها وتسميتها منبع الأسرار.

٢- تنبيه الغافلين.

٣- سلك الأنوار.

٤- هدية السالكين وتحفة الطالبين.

- كما اشتهر بنظم بعض الأبيات الحكمية بالفارسية قام مريدوه بتعريبها منها: (الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، عبد المجيد الخاني ص١٣١)

أتينـــاك بـــالفقر لا بـــالغنى وأنت الـــذي لم تـــزل محـــسنا

من كان ذا عقل تبرأ من فـــتى يؤخر فعل اليوم منـــه إلى غـــد

- وقد كان زاهداً متقشفاً حريصاً على الكسب الحلال فكان يأكل خبز الشعير الذي يزرعه بنفسه، وكان يلبس جبة من الصوف، وكان محباً للفقراء يصنع لهم الطعام بيده، ويخدمهم ويواسيهم لذلك أحبه الجميع واعترفوا بفضله.

(المصدر السابق ص١٣٥)

- وقد عرفت الطريقة النقشبندية منذ نشأتها حتى الآن بعدة أسماء:

١- فمن عهد أبي بكر ﷺ حتى أبي يزيد البسطامي كانت تسمى **صديقية**.

٢- ومن عهد أبي يزيد حتى عبد الخالق الغجدواني كانت تسمى **طيفورية** نسبة للاسم الأول لأبي يزيد.

٣- ومن الغجدواني إلى محمد بهاء الدين كانت تسمى **خواجكانية** نسبة إلى ختم (ذكر) الخواجكان الذي أدخله الغجدواني.

٤- ومن محمد بهاد الدين إلى الآن أصبحت تعرف بالنقشبندية، وهي كلمة مؤلفة من جزءين: (**نقش** وهو الحفر، و**بند** أي القلب ومعناه ربط وبقاء من غير محو فالكلمة تشير إلى تأثير الذكر في القلب وانطباعه فيه).

(الحديقة الندية، محمد سليمان)

(يرى النقشبندية أن طريقتهم أقرب الطرق وأسهلها على المريد للوصول إلى درجة التوحيد وهي طريقة الصحابة على أصلها لم تزد و لم تنقص فهي تدعو إلى العبودية التامة ظاهراً وباطناً مع الالتزام التام بآداب السنة النبوية وهي تحض على العزائم وتجنب الرخص في جميع الحركات والسكنات في العادات والعبادات والمعاملات، كما أنها متحررة من الابتداع والانحرافات والشطحات والرقص وسفاسف السماع وليس فيها كثرة الجوع وكثرة السهر، وبالتالي فإنها سليمة من كدرات جهلة المتصوفة، لأنها ملتزمة بآداب الشريعة التي تحث على الاعتدال وفضيلة الوسط). (جامع الأصول، الكمشخالني ص١٣٦)

(ومدار الطريقة عندهم يقوم على:

أولاً- التحقق بكمال الإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به الرسول ﷺ بحيث تظهر نورانية تلك الحقيقة في جميع أعضاء المريد، ولا يتسنى ذلك إلا بملازمة طاعة الله ﷻ، وابتغاء مرضاته، ومتابعة الرسول ﷺ، ومخالفة النفس الأمارة.

ثانياً - التحقق بكمال الإسلام المعبر عنه بالتزام العبد بجميع الأحكام الشرعية مع إظهار العجز والافتقار والذل والانكسار والتسليم من حيث الظاهر والباطن، ولا يحصل كمال الإسلام إلا بمجاهدة النفس وبأن تتبّع السنة النبوية، وتعمل بالعزيمة، وتتجنب الرخصة.

ثالثاً: التحقق بكمال الإحسان أي تصفية العمل من طلب عوض أو قصد غرض أو رياء، وبكلمة هي الإخلاص أي أن يكون العمل خالصاً لوجه الله ﷻ).

(بغية الواجد، أسعد صاحب ص٢٥)

- (وللطريقة النقشبندية قدم راسخة في إنقاذ البشر من عالم الشرور لما فيها من التعاليم العالية، فغايتها تهذيب النفوس، وإيصالها إلى الماهية الغالية من الإيمان).

(منحة الرحمن، عبد الله الدهلوي ص٣١)

- وبالجملة فهي: (أم الطرائق ومعدن الأسرار الصديقية والحقائق، وهي الطريق الأقرب الأسلم الأحكم الأوضح، والمشرب الأعلى الأصفى المصون عن قدح كل قادح). (الحديقة الندية، محمد سليمان ص١٧)

- وقد انتشرت هذه الطريقة في أنحاء العالم الإسلامي كله، وإليها ينتسب كثيرٌ من العلماء المشهورين في هذا العالم ومن أشهرهم في بلاد الشام: الشيخ عيسى الكردي وتلامذته ومنهم الشيخ محمد أمين الكردي الزملكاني، والشيخ محمد أمين كفتارو، ثم الشيخ أحمد كفتارو رحمهم الله.

□ الطريقة القادرية:

- مؤسس الطريقة القادرية الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهو محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، أمه: أم الخير فاطمة بنت الشيخ عبد الله الصومعي الحسيني الزاهد فهو حسني من جهة الأب حسيني من جهة الأم.

- (ولد الشيخ عبد القادر عام (٤٧٤هـ/١٠٧٧م) في جيلان أو كيلان فعرف بالجيلاني أو الكيلاني، وجيلان إقليم فارسي يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين اشتق اسمها من الجيالي بمعنى الوحل، وذلك لكثرة المستنقعات التي تغمر الإقليم).

(القاموس الإسلامي، أحمد عطية الله)

- ظل الشيخ عبد القادر في بلدته جيلان ثمانية عشر عاماً تلقى فيها بعض مبادئ العلوم الشرعية فقصد بغداد حيث كانت عنواناً لحضارة علمية، فكانت مجمعاً للعلماء والفلاسفة، ومركزاً للفقهاء والعلماء والمحدثين، ومنتدى للشعراء والكتاب وأصحاب التراجم والسير والتاريخ، ومحراباً للزهاد والصوفية، أمضى الشيخ عبد القادر في بغداد أكثر من سبعين سنة عاصر خلالها خمسة من الخلفاء العباسيين وهم

المستظهر بأمر الله والمسترشد والراشد والمقتفي لأمر الله والمستنجد بالله، هذه الفترة التي كانت ملأى بالحوادث الخطيرة حيث كان الصراع عنيفاً بين الخلفاء العباسيين وبين سلاطين آل سلجوق الذين كانوا يطمحون إلى بسط نفوذهم وسيطرتهم على الدولة العباسية، وكثر في هذا الوقت حب الدنيا، والتكالب على شهواتها وزخارفها وسيطر النفاق والحقد، والغل والحسد، والكراهية والبغضاء، إلى غير ذلك من الآفات والمفاسد الاجتماعية.

- فلما رأى الشيخ عبد القادر هذه الانحرافات، وأدرك أن هذه الأمة بحاجة ملحة إلى دعوة دينية تخفف من الغلو في حب الدنيا، والشغف بلذاتها، والإقبال على مظاهرها، وتوقظ في النفوس روح الإيمان، وتثير عقيدة الآخرة، وتدعو إلى تحريك القلوب حباً لله وحده وحنيناً إليه وطلباً لرضوانه.

- ومن أجل أن يحقق الشيخ عبد القادر هذه الأهداف أقبل على طلب العلم بهمة عالية وحرص شديد فكان يتعلم في اليوم ما يتعلمه أقرانه في أسبوع فأتقن العلوم السائدة في عصره على مشاهير مشايخ بغداد آنذاك، فحصل علوم القرآن والأصول والفروع وعلم الحديث وقرأ الأدب وأخذ علوم التصوف عن الشيخ حماد بن مسلم الدباس وعن القاضي ابن سعيد المخرمي الذي له سلسلة من المشايخ تصله بالشبلي فالجنيد فالسري السقطي فمعروف الكرخي فداود الطائي فحبيب العجمي فالحسن البصري فأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ثم حبب إليه شيخه حماد الدباس المجاهدات والرياضات، كان هذا الشيخ قدوة لمشايخ بغداد، فقام الشيخ عبد القادر بهذه المجاهدات والرياضات حتى صفا قلبه، ونال مراده، ومالت نفسه إلى إرشاد الخلق إلى الحق ﷻ فسلمه شيخه أبو سعيد مدرسته بباب الأزج ببغداد، فقام الشيخ عبد القادر بالمهمة خير قيام ولاقى قبولاً منقطع النظير من جماهير بغداد، وأقبل عليه الناس من كل حدب وصوب حتى أن المدرسة ضاقت بهم، فقام الأغنياء منهم بشراء الدور والأماكن المجاورة وتمت توسعتها، وما لبثت أن نسبة إليه.

- (وتصدر بها للتدريس والاجتهاد في الوعظ مع الاجتهاد في العلم والعمل وجمع الله قلوب عباده على حبه، وألهج ألسنهم بالثناء عليه، وانتهت إليه رئاسة العلم والتربية والإصلاح والإرشاد والدعوة إلى الله ﷻ بالعراق، وقصده الناس من الآفاق، وكان يحضر مجالسه في بعض الأحيان الخليفة والملوك والوزراء، فيجلسون متأدبين خاشعين أما العلماء والفقهاء، فلا يأتي عليهم حصر، وقد عد في بعض مجالسه أربعمائة محبرة). (رجال الفكر، الندوي ص٢٥٤)

- (في هذه المجالس كان الشيخ يدرس التفسير والحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو ويقرأ القرآن بالقراءات وكان يفتي على مذهبي الإمامين (الشافعي وأحمد بن حنبل) وكانت فتواه تعرض على علماء العراق فتعجبهم).

(الطبقات الكبرى الشعراني جزء١ ص١٢٧)

- (كان الشيخ عبد القادر يبدأ درسه بذكر آية قرآنية في موضوع معين ثم يورد الأحاديث النبوية التي تعين على فهمها، ثم يذكر أقوال السلف الصالح في تفسيرها ثم يدلي بدلوه في هذا الموضوع بما يثير إعجاب الجماهير ويبث فيهم روح الإيمان ونور اليقين فيتوب على يديه ألوف العصاة والمذنبين ويسلم الكثير من اليهود والنصارى). (قلائد الجواهر، محمد التادفي الحنبلي ص٦)

- توفي الشيخ عبد القادر في بغداد في رمضان سنة ٥٦١هـ تموز ١١٦٧م، وقد جاوز التسعين وقبيل وفاته سأله ابنه عبد الوهاب النصيحة فقال: (عليك بتقوى الله، ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترجو أحداً سوى الله، وكل الحوائج إلى الله، ولا تعتمد إلا عليه، واطلبها جميعاً منه، ولا تثق بأحدٍ سوى الله).

(فتوح الغيب على هامش قلائد الجواهر، عبد القادر الجيلاني ص١٣٠)

- وقد صلى عليه ولده عبد الوهاب مع إخوته وحشد كبير من تلامذته ومريديه وأصحابه، ثم دفن برواق مدرسته بباب الأزج ببغداد.

- (ثم ما لم لبث أن تحول ضريحه إلى زوايا عظيمة لتخريج رجالات القادرية، أخذ من توالى على حكم بغداد في توسعة هذه الزوايا والعناية في تزيينها وزخرفتها حتى أضحت مزاراً ومعلماً من مزارات بغداد ومشاهدها).

(أسعد صاحب في بغية الواجد ص٢٠٩)

- ترك الشيخ عبد القادر عدة مؤلفات تمتاز بالدقة العلمية، والفهم السليم لمرامي الشريعة الإسلامية والتحليل العميق لمشاكل المسلمين في عصره، وأشهر هذه المؤلفات:

١- الغنية لطالبي الحق ﷻ.

٢- الفتح الرباني والفيض الرحماني، ويضمُّ المواعظ التي كان يلقيها على تلامذته في مدرسته ببغداد.

٣- فتوح الغيب مطبوع على هامش قلائد الجواهر للتاد.

٤- الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، جمع الشيخ محمد سعيد القادري.

- (اشتهر الشيخ عبد القادر بحسن أخلاقه وعلو همته وتواضعه لله تعالى وسخائه وكرمه وإيثاره، وكان يجالس الفقراء ويؤاكلهم ويحنو عليهم، كان يحفظ الود، ويتجاوز عن السيئات، ويتفقد من غاب من تلامذته، ويسأل عنهم).

(رجال الفكر، الندوي ص٢٥٥)

- (ومن تواضعه انه كان يقف للصغير والجارية وذلك مع جلالة قدره وعلو منزلته، وبالمقابل لم يكن ليقف بباب وزير أو سلطان طلباً لدنيا أو سعياً وراء جاه أو منفعة). (التصوف في الإسلام، عمر فروخ ص٧٩)

- (وكان حنبلي المذهب لكنه لم يكن متعصباً لأن همه الأوحد الوصول إلى الله سبحانه وتعالى ونيل رضوانه، فكان يقول: اترك التعصب في المذهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة). (الفتح الرباني، الجيلاني ص٢٣)

- يصفه العالم ابن رجب الحنبلي فيقول: (شيخ العصر، وقدوة العارفين، وسلطان المشايخ، وسيد أهل الطريقة في وقته، صاحب المقامات والكرامات، والعلوم والمعارف، والأحوال المشهورة). (الذيل، ابن رجب جزء١، ص٢٠٥)

- ويصفه ابن السمعاني: (إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيه، صالح، دينٌ، خيرٌ، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة). (المصدر نفسه والصفحة نفسها)

- وقال عنه ابن حجر العسقلاني الشافعي: (كان فقيهاً، زاهداً، عابداً، يتكلم إلى الناس ويرغبهم في الزهد والتوبة، ويحذرهم من العقوبة على المعصية، فكان يتوب على يده من الخلق ما لا يحصى كثرته، وله كرامات مستفيضة).

(قلائد الجواهر، محمد التادفي الحنبلي ص١٣٥)

- كما وصفه الإمام النووي بالعبارات التالية: (جميل الصفات، شريف الأخلاق، كامل الأدب والمروءة، كثير التواضع، دائم البشر، وافر العلم والعقل، شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه، معظماً لأهل العلم، مكرماً لأرباب الدين والسنة، مبغضاً لأهل البدعة والأهواء، محباً لمريدي الحق مع دوام المجاهدة ولزوم المراقبة إلى الموت، وكان له كلام عال في علوم المعارف، سخي الكف، كريم النفس على أجمل طريقة). (المصدر نفسه: ص١٣٨)

- وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله الأسس والمبادئ للتربية الروحية، ووضع بعض الصلوات والأدعية والأوراد ليرددها السالكون، وهي جميعاً مستمدة من كتاب الله ﷻ ومن سنة رسول الله ﷺ، فالشيخ عبد القادر من الصوفية المعتدلين الذين كرسوا حياتهم للدعوة والإيمان، وترك الفسوق والعصيان، والإقبال على الله ﷻ لنيل رضاه، ولم يطلب من مريديه ولا تلاميذه استعمال الآلات الموسيقية وضرب الشيش وأكل الحمر خلال حلقات الذكر، فهذه الأمور من البدع التي أدخلها بعض المريدين بعد وفاة الشيخ.

- ولقد دعا الشيخ عبد القادر رحمه الله إلى اتحاد القول والفعل ومعانقة الإخلاص وتفويض الأمر لله والرضا بقضائه وموافقة الكتاب والسنة في كل حال ووارد وخطرة، وفي ذلك يقول:

(اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تمزقوا، وانتظروا ولا تيأسوا، واجتمعوا على الأمر ولا تفرقوا، وانتبهوا من الذنوب ولا تتلطخوا، وعن باب مولاكم لا تبرحوا). (الطبقات الكبرى، الشعراني جزء١ص١٢٩)

- (ولقد رأى أن المعروف هو كل ما وافق الكتاب والسنة والعقل، وأن المنكر هو ما خالف هذه المصادر). (الغنية، الجيلاني جزء١، ص٤٧)

□ الطريقة الرفاعية:

- (مؤسس هذه الطريقة الشيخ أحمد الرفاعي، وهو أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن يحيى بن ثابت بن حازم بن أحمد بن علي بن رفاعة الرفاعي الحسيني البطائحي المغربي أصلاً الشافعي مذهباً، ورفاعة هذا اسمه حسن المكي ولقبه رفاعة، هاجر من مكة إلى المغرب عام (٣١٧هـ/٩٢٩م) وهي السنة التي قتل فيها القرامطة أمير مكة وقاموا بنهب وهدم أجزاء من الكعبة المشرفة، وينتهي نسب رفاعة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب.

- التحق رفاعة بإحدى القبائل العربية بالقرب من إشبيليه بالأندلس، وظل أولاده يتناسلون هناك إلى عهد يحيى جد الشيخ أحمد، فكان يحيى أول قادم من هذه الأسرة إلى العراق حيث وصل البصرة عام (٤٥٤هـ/١٠٥٨م)، وقد اشتهر بالزهد، وعلوّ الهمة، تزوج بنت الشيخ حسن النجاري وولد له علي أبو الحسن والد الرفاعي).

- في عام (٥٠٠هـ/١١٠٦م) ولد أحمد الرفاعي في قرية حسن بالبطائح بالقرب من واسط بالعراق، وفي السابعة من عمره توفي والده ببغداد فكفله خاله الشيخ منصور البطائحي، وقد درس القرآن وحفظه ورتله على الشيخ عبد السميع

الحربوني، ثم انتقل مع والدته وإخوته وخاله إلى قرية نهر دقلي حيث تتلمذ على الشيخ أبي الفضل علي القارئ الواسطي (وهو من كبار المتصوفة وعلماء زمانه) الذي قام بتربيته وتأديبه وتعليمه، كما تلقى الفقه على المذهب الشافعي عن الشيخ عبد الملك الحربوني (فقيه زمانه).

- وفي العشرين من عمره أجازه الشيخ أبو الفضل بعلوم الشريعة والطريقة ولقبه بأبي العلمين (الظاهر والباطن).

- (وفي الثامنة والعشرين من عمره سلمه خاله منصور مشيخة رواق (أم عَبيدة) -وكانت زمن الرفاعي مأهولة بالسكان وموقعها في البطحاء قرب قضاء الرفاعي من محافظة الناصرية بالعراق- فامتثل أوامر خاله، وأقام في تلك القرية، أخذ بالإرشاد، فكان يقرأ في كل يوم صباحاً ومساءً دروس الفقه والتفسير والحديث والعقائد، كما كان يعظ الناس كل اثنين وخميس بعد صلاة الظهر حيث كان يقبل على مجالس وعظه الجم الغفير من الناس). (البرهان المؤيد، أحمد الرفاعي ص٤)

- وكان إذا جلس على كرسيه في الدرس أحاطت به أئمة العلماء وفحول الخطباء والمرشدون والكثير من الخواص والعوام، فإذا أخذ بالتحدث جرى العلم على لسانه كالبحر المتدفق فيذهل العارفين ببلاغته وسعة علمه، ويخرس الجامدين والمارقين بقوة حججه، فالأدباء تأخذ نصيبها من فصاحته، والعلماء من معارفه، والفلاسفة من تحقيقه وحكمه.

- وكان الرفاعي يقرأ القرآن ويجوده على أحسن وجه، وقد أتقن هذا الفن على شيخه علي القارئ الواسطي، وكان الرفاعي في شبابه يتجنب الأقران منصرفاً إلى رياضة الذكر ومجاهد النفس وترويضها حتى تترقى في مقامات الطريق (حتى انتهت إليه الرئاسة في علوم الطريق وشرح أحوال القوم وكشف مشكلات منازلاتهم، فتخرج بصحبته الجمع الكثير وأثنى عليه العارفون، وقدمه السالكون).

(سماع وشراب عند أشرف الأقطاب، عبد الحكيم عبد الباسط ص٣٠)

- (وفي عام ٥٥٥هـ/ ١١٥٦م قام الرفاعي بأداء فريضة الحج مع جموع غفيرة من مريديه، ومما يذكره الرواة أنه وقف تجاه قبر الرسول ﷺ وقال: السلام عليك يا جدي وأنشد:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها ... تقبل الأرض عني فهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت ... فامدد يمينك قد تحظى بها شفتي)

(العقد النضيض في آداب الشيخ والمريد، أبو الهدى الصيادي ص٤٥)

- وقد قيل أنه حدثت له حالة روحية شعر بها أن النبي قد أخرج يده فقبلها.

- (مرض الشيخ أحمد الرفاعي مرضاً في بطنه استمر نحو شهر ثم توفي في الثاني عشر من جمادى الأولى عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م، ودفن بأم عبيدة في قبة جده لأمه).(سواد العينين، الرافعي ص٨٣)

- وكان يوم وفاته مشهوداً إذ احتشدت الجموع لتشييعه من كل المدن والقرى وبلغت مراثيه أكثر من ألف قصيدة، وقد ترك الشيخ الرفاعي رحمه الله مؤلفات كثيرة ومتنوعة فقد معظمها إبان هجوم التتار على العراق وتدميرهم للحضارة الإسلامية بالعراق، وأشهر ما بقي منها:

١- البرهان المؤيد: وهو عبارة عن مجالس وعظه، وقد جمعه ودونه تلميذه شرف الدين بن الشيخ عبد السميع الواصد، وهو من الكتب المهمة في بيان أصول الطريق الرفاعية.

٢- حالة أهل الحقيقة مع الله: ويتضمن أربعين مجلساً في كل خميس مجلس، ويبدأ الرفاعي مجلسه بذكر حديث نبوي ثم يأخذ في شرحه بما أوتي من علوم الصوفية وأقوالهم مستشهداً بالآيات القرآنية.

٣- المصباح المنير في ورد السيد الرفاعي الكبير.

٤- السر المصون وهو حزب الرفاعي.

٥- معاني بسم الله الرحمن الرحيم.

٦- تفسير سورة القدر.

٧- الطريق إلى الله.

- ومن أهم مصنفاته المفقودة: شرحه لكتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي في فروع الفقه الشافعي، وقد شرحه الرفاعي في ستة مجلدات كبيرة.

- (ولم يسلم الرفاعي من الدس، فقد تجرأت جماعة من الخارجين عن تعاليمه فوضعت كتاب الفتح المبين، وزعمت أنه من مواعظ الرفاعي وكلماته المأثورة، وقد ذكروا فيه أقوالاً لا يمكن أن تصدر عن شيخ ملتزم بأوامر الشرع محارب للشطحات والبدع، وقد حرص المنصفون من المترجمين لحياة الرفاعي على نبذها وإهمالها).

(التاريخ الأوحد، أبو الهدى الصيادي ص٨٤)

- فقد ذكر الإمام أحمد الرفاعي تحت عنوان الرقص والسماع ما يلي: (إيش أعمل بالسماع الذي يرقص فيه الراقص بغير قلب، ونجاسة النفس لطخته، كيف يحسب برقصه ونقصه من الذاكرين؟

ورُبَّ تالٍ تلا القــرآن مجتهــداً بين الخلائــق والقــرآن يلعنــه

- ثم قال: سمى القوم الهز بالذكر: رقصاً أن وارد الهزة من الروح، فنسبوا الرقص للروح لا للجسم، وإلا فأين الراقصون؟ وأين الذاكرون؟ طلبُ هؤلاء حق وطلب هؤلاء ضلال.

سارت مشرقة وسرت مغربــاً شتان بــين مــشرق ومغــرب

الراقصون كذابون، والذاكرون مذكورون (أي مذكرون عند الله تعالى الذي يقول: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾) بين الملعون والمحبوب بون عظيم، إذا دخلتم مجالس الذكر فراقبوا المذكور، واسمعوا بأذن واعية). (مجموع الفتاوى جزء ٢ ص٢٢٣)

- (أخذ الرفاعي الإجازة في التصوف من شيخه علي القارئ الواسطي وهو من ابن كامخ الواسطي، وهو من علي بن تركان، وهو من أبي علي الروذباري، وهو من علي العجمي، وهو من أبي بكر الشبلي، وهو من أبي القاسم الجنيد البغدادي، وهو من خاله السريّ السقطي، وهو من أبي محفوظ معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو من حبيب العجمي، وهو من الحسن البصري، وهو من الإمام علي بن أبي طالب، وهو من النبي ﷺ). (أحمد الرفاعي: البرهان المؤيد ص٧٠)

- (وقد تأسى الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله بالرسول الكريم ﷺ، فأخذ عنه الأخلاق الحميدة والصفات الرحيمة فقد كان رحمه الله هيناً ليناً، حسن الخَلق، كريم الخُلق حلو المكالمة لطيف المعاشرة لا يمله جليسه حمولاً للأذى وفياً إذا عاهد جواداً من غير إسراف متواضعاً من غير ذلة كاظماً للغيظ من غير حقد أعلم أهل عصره بكتاب الله وسنة رسوله.

وكان يعود المرضى، ويغسل ثيابهم، ويحمل إليهم الطعام، ويأكل معهم ويجالسهم ويسألهم الدعاء، وكان يخرج إلى الطريق ينتظر العميان حتى إذا جاؤوا أخذ بأيديهم، وكان يعطف على المسنين ويوصي بهم خيراً، وكان يعفو ويصفح عمن يسيء إليه). (الطبقات الكبرى، الشعراني جزء١ ص٤٣)

◻ الطريقة الشاذلية:

- تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ علي بن عبد الله أبي الحسن الشاذلي الحسني، ولد ببلدة غمارة القريبة من مدينة سبتة بالمغرب الأقصى عام (٥٩٣هـ-١١٩٦م) درس ببلدته العلوم الدينية فبرع فيها، ثم أخذت نفسه تتوق إلى التعمق في المعارف والعلوم والكشوفات، فبدأ التفتيش على شيخ خبير بمعالم الطريق، ولما كانت بغداد آنذاك مركز الحضارة الإسلامية فقد قصدها أبو الحسن عله يجد فيها ضالته المنشودة، وهناك التقى بمشاهير علمائها وأوليائها لا سيما أبي الفتح الواسطي

الذي قال فيه أبو الحسن: (لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي فما رأيت بالعراق مثله).

(المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن، عبد الحليم محمود ص٢٢)

- ولما أسرَّ أبو الحسن للواسطي بالهدف من حضوره للعراق أشار عليه بالعودة إلى بلاد المغرب للسلوك على الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش (وهو صوفي مشهور في المغرب العربي)، فرجع أبو الحسن إلى المغرب حيث اتصل بابن مشيش وفي ذلك يقول: (لما قدمت عليه، وهو ساكن مغارة برباطه في رأس الجبل، اغتسلت في عين في أسفل الجبل وخرجت عن علمي وعملي، وطلعت إليه فقيراً، وإذا به هابطٌ علي فلما رآني قال: مرحبا بعلي بن عبد الله... وذكر لي نسبي إلى الرسول ﷺ ثم قال: يا علي طلعت إلينا فقيراً عن علمك وعملك وستأخذ منا غنى الدنيا والآخرة، فأخذني منه الدهش، وأقمت عنده أياماً إلى أن فتح الله على بصيرتي، ورأيت لها خرق عادات من كرامات وغيرها).

(الأنوار القدسية، محمد المدني ص٣١)

- وقد ساعده الشيخ ابن مشيش على اجتياز عقبات الطريق وما فيها من مقامات وأحوال بسهولة ويسر، كما زوده بالعديد من الوصايا التي بهرته وجعلته يقبل على التمسك بالشريعة والفناء في محبة الله سبحانه وتعالى، ولعل أهمها الوصية الجامعة التالية: (لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ﷻ، ولا تجلس إلا حيث تأمن من معصية الله ﷻ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ﷻ، ولا تصطفي لنفسك إلا من تزداد به يقيناً). (الصوفية في إلهامهم، حسن الملطاوي ص١٨٨)

- وبعد أن أمضى أبو الحسن مدة في الأخذ عن الشيخ ابن مشيش أمره شيخه بالرحيل إلى بلدة شاذلة أولاً، ثم إلى تونس فالمشرق العربي طالباً منه الصبر على ما سيصادفه من محن وابتلاءات، وقد أوصاه بتنـــزيه لسانه عن ذكر الناس، وقلبه عن

عبادة أصنامهم وتماثيلهم، ودعاه إلى حفظ الجوارح وأداء الفرائض وتذكير الناس بحقوق المولى عليهم، كما أمره بتلاوة الدعاء التالي: (اللهم أرحني من ذكر الناس، ومن العوارض من قبلهم، ونجني من شرهم، وأَغْنِني بخيرك عن خيرهم، وتولني بالخصوصية من بينهم). (المدرسة الشاذلية، عبد الحليم محمود ص٢٦)

- ارتحل أبو الحسن إلى بلدة شاذلة القريبة من تونس فعرف من ذلك الحين بالشاذلي، وعرفت طريقته الصوفية بالشاذلية.

- (اختلى الشاذلي مدة في جبل الزعفران القريب من شاذلة، يجاهد النفس في مغارة بأعلى الجبل). (الأنوار القدسية، محمد المدني ص٢٧)

- في هذه المغارة كان الشاذلي يتضرع إلى ربه يحدوه الشوق والمحبة، ويعمر قلبه اليقين، وهذه الخلوة ضرورية عند أهل الطريق حتى يستكمل المريد معالم شخصيته، وبعد ذلك ينطلق إلى الدعوة والإرشاد تشبهاً بما كان يفعله النبي ﷺ قبل البعثة في غار حراء لاسيما خلال شهر رمضان من كل عام.

- وبعد أن أمضى الشاذلي فترة الخلو توجه إلى مدينة تونس حيث أقام في دار مسجد البلاط مع جماعة من أتباعه منهم: أبو الحسن علي بن مخلوف السقلي، أبو عبد الله الصابوني، أبو محمد عبد العزيز الزيتوني، وغيرهم كثير، وقد التف حوله المريدون الأمر الذي دفع قاضي المدينة ابن البراء إلى الدس على الشاذلي لدى سلطان تونس أبي زكريا، وقد بلغ هذا الدس ذروته عندما تمكن الشاذلي من إفحام ابن البراء وغيره من فقهاء تونس الذين ناظروه في علوم التفسير والفقه والحديث، فما كان من ابن البراء إلا أن أوغر صدر السلطان على الشاذلي، ثم تأكد السلطان من صدق الشاذلي وإخلاصه في الدعوة إلى الله ﷻ فاعتذر له، ولما عزم الشاذلي على ترك تونس لأداء فريضة الحج، حاول السلطان ثنيه عن عزمه مخافة أن يسمع الناس أن تونس تضيق ذرعاً بالأولياء والصالحين، فوعده الشاذلي بالعودة مجدداً إلى تونس،

ولما دخل الشاذلي وأصحابه مصر في طريقهم إلى الحجاز كان ابن البراء قد أرسل إلى سلطان مصر بأنه سيصل إلى دياره من يشوش عليه البلاد كما شوش على التونسيين، لكن السلطان بعد أن اجتمع بالشاذلي وحادثه وأعجب به لم يأبه لهذه الدعوة بل سارع إلى تكريمه وتسهيل مروره مع أصحابه إلى الديار المقدسة.

- وبعد أداء الفريضة رجع الشاذلي إلى تونس فتتلمذ على يديه عدد كبير من أبنائها في طليعتهم أبو العباس المرسي، ثم عاد إلى الإسكندرية عام (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) عن طريق الساحل ماراً بطرابلس الغرب، فلما نزل الإسكندرية استقبله أهلها بالحفاوة والتكريم، وخصص له السلطان برجاً أوقفه عليه وعلى ذريته من بعده، هذا البرج كان بمثابة الزاوية المركزية للشاذلية، ومنه انتشر مشايخ هذه الطريق يؤسسون الزوايا الشاذلية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

- كان الشاذلي يجمع مريديه في هذا البرج كل ليلة لإقامة الأذكار وللوعظ والإرشاد وعند الانتهاء كان يتوجه إلى خلوته.

- (ولم يقصر أبو الحسن الشاذلي نشاطه العلمي والروحي على مدينة الإسكندرية وحدها بل كان دائم الرحلة إلى المدن المصرية فتردد على دمنهور، ثم زار دمياط والمنصورة... وتردد كثيراً على القاهرة، في كل هذه المدن كان الشيخ يعقد حلقاته المعتادة للدرس والوعظ لتفقيه الناس في أمور دينهم ولنشر مبادئه ودعوته).

(أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، جمال الدين الشيال ص١٨٠)

- أصيب الشاذلي عام (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) بانكفاف البصر لكثرة مطالعته وانصرافه إلى الدرس، لكن ذلك لم يدفعه إلى تغيير عادته حيث كان يؤدي فريضة الحج عاماً ويقيم آخر، وعندما كان يحج كان تلامذته في شتى أنحاء العالم يجتمعون به في الحجاز ليشكل منهم وفد الشاذلية.

- (وفي عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) انطلق وفد الشاذلية لأداء فريضة الحج وفي إحدى ليالي شهر شوال من العالم ذاته جمع أصحابه وأوصاهم بأمور كثيرة كما

أوصاهم بحفظ وترداد أحزابه، ثم اختلى بالشيخ أبي العباس المرسي، وأوعز إلى أصحابه بأن أبا العباس سيكون خليفته في مشيخة الطريقة من بعده، وبات الشاذلي في ذكر الله والتضرع إليه حتى وقت السحر فسكت وظن الجميع أنه قد نام فكلموه فلم يتكلم فحركوه فلم يتحرك فوجدوه ميتاً فدفنوه بحميثرا، في برية عيذاب في واد على طريق الصعيد، وقد أكمل الوفد بعد مراسم الدفن طريقه إلى الحج برئاسة خليفته المرسي). (طبقات الأولياء، ابن الملقن ص٤٥٩)

- (كان الشاذلي يرتدي الثياب الحسنة على غير عادة معظم الصوفية كما كان يتناول الطعام الشهي ويشرب الماء البارد لأنه تمسك بقاعدة: اعرف الله ثم كن كيف شئت، وكان فصيح اللسان عذب الكلام لا يمله السامع، حافظاً للقرآن الكريم، متبعاً للسنة النبوية، متقناً للعلوم الدينية بالإضافة إلى العلوم الصوفية، ولم يكن ليقبل المريد ما لم يتبحر في العلوم الشرعية ويجتاز مناظراتها بنجاح.

وكان جواداً كريماً يسعى جهده في قضاء حوائج الناس، والتخفيف من وَطْءِ المصائب والكوارث التي تنزل بهم، فكان يتردد إلى الأمراء والولاة شافعاً ومدافعاً.

كان يعمل في الحرث والغرس والحصاد وتربية الماشية حيث يأخذ ما يحتاج إليه ثم يتصدق بالباقي على الفقراء والمحتاجين، وكان عالماً ورعاً، بحراً عميق الغور، ومربياً ممتازاً، تتلمذ على يديه صفوة رجال الفكر والعلم، وأسس أعظم مدرسة فكرية في المجتمعات الصوفية). (مرآة الجنان، عبد الله اليافعي جزء٤ ص١٤٦)

- (لم يترك الشاذلي كتباً بالرغم من اهتمامه بالعلم ومطالعته الكثيرة وفقهه في مختلف مجالاته، وعندما سأل مرة: (لِمَ لا تضع كتاباً في الدلالة على الله، وعلى علوم القوم؟ أجاب: كتبي أصحابي) فقد اعتبر تربية المريدين أفضل من تأليف الكتب، وتدوين المصنفات، ومع ذلك فقد ترك الشاذلي ثروة عظيمة من حكم ووصايا وأوراد وأدعية رواها عنه مريدوه والعلماء ونشروها في كتب الصوفية).

(رحلة إلى الحق، فاطمة اليشروطية ٤٨)

- (وقد تفرعت الشاذلية إلى عدة فروع منها: القاسمية، والمدنية، والسولامية، والقاوقجية، والفيضية، والإدريسية، والجوهرية، والوفائية، والعزمية، والحامدية، والمحمدية، والهاشمية إلى غير ذلك، وهي تحمل أسماء مشاهير مشايخها والمجددين فيها).

(مدخل إلى التصوف الإسلامي، أبو الوفا ص٢٤٢)

- وما زالت الطريقة الشاذلية تنتشر في العالم الإسلامي إلى زماننا الحاضر، وينتسب إليها العديد من كبار العلماء والأولياء والصالحين، من أشهرهم: ابن عطاء الله السكندري توفي (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي توفي (٩١١هـ/١٥٠٥م)، والشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر المشهور توفي (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).